

المقامة الدينارية

كُتِبَتْ لَكُمْ _ أَيْهَا الْقُرَاءَ _ فِيمَا مَضَى "المقامة الكروبية" ([١])، وأتبعها اليوم بالمقامة الدينارية ([٢])، أتحدثُ فيها عن الدرهم والدينار، من خلال الرؤى والأفكار، والطرائف والأخبار، والأدب والأشعار، فحديث الغنى والإفلاس ([٣])، أضحى مالى الدنيا وشاغل الناس، ولقد كُتِبَتْ بهذا العنوان مقامتان، في غابر الأزمان، الأولى لبديع الزمان الهمداني ([٤])، والأخرى للحريري ([٥]).

وسأذكر لكم مَقْطَعَيْنِ، من كلتا المقامتين، يوضحان لنا، ما يفعله الدينارُ في عالمنا، وليس المقصودُ بالدينار هنا؛ التَّفَقُّدُ المعروفُ في زماننا، بل المرادُ به المالُ عموماً، والذي يجعلُ _ بسحره _ من الأحبابِ خصوصاً، ويفرِّقُ بين المرءِ وأخيه، وصاحبته وبنيه، والله دُرُّ القائل ([٦])، من الفحول الأوائل:

فلا أحسبُ الخسرانَ فِقدانَ درهمٍ ولكنَّ فراقَ الخَلِّ أحسبُهُ خُسْرًا

فيا عجباً لأمره! كم باعد بين الأصحاب، وقطع أوثق الأسباب، ومزق أقرب الأنساب، فهو لعمرُ الله نعمة في نقمة، ونقمة في نعمة، مَنْ جعله مطيةً الخير أوصله إليه، ومن سخره في الشر كان وبالاً عليه.

هانثُ لأجله النفوس، وانحنت الرؤوس، بريقهُ سحر، وصفرتهُ خمر، يُسكر من غير شراب، ويسبي من دون أسباب، ما أجمله في أيدي الكرام، وما أقبحه في أيدي اللئام.

قال الهمداني في مقامته الدينارية _ (حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: اتَّفَقَ لِي نَذْرٌ نَذَرْتُهُ فِي دِينَارٍ أَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى أَشْحَذِ رَجُلٍ بِنِعْدَادٍ، وَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَدَلَّلْتُ عَلَى أَبِي الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيِّ، فَمَضَيْتُ إِلَيْهِ لِأَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُهُ فِي رُفْقَةٍ، قَدْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ فِي حَلْفَةٍ، فَقُلْتُ: يَا بَنِي سَاسَانَ، أَيُّكُمْ أَعْرَفُ بِسَلْعَتِهِ، وَأَشْحَذُ فِي صَنْعَتِهِ، فَأَعْطِيهِ هَذَا الدِّينَارَ؟ فَقَالَ الْإِسْكَندَرِيُّ: أَنَا، وَقَالَ آخَرٌ مِنَ الْجَمَاعَةِ: لَا، بَلْ أَنَا. ثُمَّ تَنَاقَشْنَا وَتَهَارَشْنَا) ([٧]) حَتَّى قُلْتُ: لَيْسْتُمْ كُلُّكُمْ صَاحِبِيهِ، فَمَنْ غَلَبَ سَلَبَ، وَمَنْ عَزَّ بَزَّ ([٨]).

فَقَالَ الْإِسْكَندَرِيُّ: يَا بَرْدَ الْعُجُوزِ ([٩])، يَا كُرْبَةَ تَمُوزَ.... وَقَالَ الْآخَرُ: يَا قَرَادَ ([١٠]) الْفُرُودِ، يَا... قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ: فَوَ اللَّهُ مَا عَلِمْتُ أَيَّ الرَّجُلَيْنِ أَوْثَرُ؟! وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا بَدِيعُ الْكَلَامِ، عَجِيبُ الْمَقَامِ، أَلْدُ الْخِصَامِ، فَتَرَكَهُمَا، وَالدِّينَارُ مُشَاغٍ بَيْنَهُمَا، وَأَنْصَرَفْتُ وَمَا أَدْرِي مَا صَنَعَ الدَّهْرُ بِهِمَا ([١١]).

قال الجرابلسي ([١٢]) _ في مقامته الدينارية _ : لو أوردت ما جرى بينهما من الشتائم والسباب، كما ذكره صاحب الكتاب ([١٣])، لرأيتم شيئاً من العجب العجيب، والله القائل ([١٤]):

وَعَلَى الدِّينَارِ دَارُوا وَلَهُ حَجُوبٌ وَزَارُوا

لَوْ يُرَى فَوْقَ النَّرْيَا وَلَهُمْ رِيثٌ لَطَارُوا

أما الحريري فقد روى في المقامة الدينارية ([١٥]) عن الحارث بن همّام قال: نظمتُ وأخذنا لي ناذٍ. لم يخبُ فيه منادٍ... فبينما نحنُ نتجادبُ أطرافَ الأناشيد. وتواردُ طرفَ الأسانيد. إذ وقفَ بنا شخصٌ عليه سَمَلٌ ([١٦]). وفي مشيئته قَرَلٌ ([١٧]). فقال: يا أخايرَ الذخائرِ، وبشائرِ العسايرِ...

قال الجرابلسي مُلَخَّصاً ([١٨]): فشكى لهم هذا الشخصُ ما حلَّ به من الخطوب، وما نزل به من الكروب.

قال الحريري مُكْمِلاً: قال الحارثُ بنُ همّامٍ: ... فأبرزتُ ديناراً. وقُلْتُ لَهُ اخْتِياراً: إِنْ مَدَحْتَهُ نَظْماً. فَهُوَ لَكَ حَتْمًا. فَانْبَرَى يُنْشِدُ فِي الْحَالِ. مِنْ غَيْرِ انْتِحَالٍ ([١٩]):

أَكْرَمُ بِهِ أَصْفَرَ رَاقَتَ صُفْرَتُهُ ... جَوَابَ آفَاقِ تَرَامَتِ سَفْرَتُهُ

مأثورةٌ سُمِعَتْهُ وشَهْرَتْهُ ... قد أُودِعَتْ سِرَّ الغِنَى أسِرَّتُهُ

ثم بسط يده. بعدما أنشده. وقال: أنجزَ حرُّ ما وعدَ. وسخَّ خالٌ ([٢٠]) إذ رعدَ. فنبتتُ الدينارَ إليه. وقلتُ: خذهُ غيرَ مأسوفٍ عليه. فوضعه في فيه. وقال: بارك اللهم فيه! ... فجزدتُ ديناراً آخرَ وقلتُ له: هل لك في أن تدمه. ثم تضمه؟ فأنشدَ مرتجلاً. وشدا عجلًا ([٢١]):

تبتاً له من خادعٍ مُمادقٍ ... أصفرَ ذي وجهين كالمنافق

وحبه عند ذوي الحقائق ... يدعو إلى ارتكابِ سُخطِ الخالق

لؤلؤه لم تُقطعَ يمينُ سارقٍ ... ولا بدتْ مظلمةٌ من فاسق

فقلتُ له: ما أغزَرَ وبُلكَ ([٢٢])! فقال: والشُرطُ أملاكُ. فنفتحهُ بالدينارِ الثاني. وقلتُ له: عودهُما بالمتاني. فألقاه في فيه. وقرنهُ بتوأمه.

قال الجرائلسي معلقاً:

إيه أيها الدينار ماذا أقول فيك، وأنتشر من مساويك؟ كم بذل ناسٌ في سبيلك ماءً وجوههم، ولم يستبقوا ذرةً من حياهم

تَبَدُّوا الوفاءَ مع الحياءِ وراءَهُمْ فهُم بِحَيْثُ يَكُونُ هذا الدِرْهُمُ

فلما لقوا المنون، لم ينفعهم مال ولا بنون

وما ينفع الدينارُ والموتُ محققٌ بروح الفنى والغائلات تحوطهُ

فإن لم تنفع القوم، في ذلك اليوم، فما أظنك بعدها لمحتاج نافعاً، ولا لوضعٍ رافعاً، وعندى العلم والأدب، لا يفوقهما التبر والذهب

مأثرُ هنَّ المجدُّ لا كسبُ درهمٍ وهنَّ المعالي لا حُلَى وثياب

ولا أزعُمُ أني زاهدٌ فيك، ودعني بهذا الكليبات أنا أريدك، حتى لا يمينَ عليّ عبيدك، فيك أصون عرُضي، وأحقق غرضي، فإن أتيت، فأهلك وافيت، وإن أبئت، ذكرنا هذا البيت:

ولا ترهبين الفقرَ ما عشتَ في غدٍ ... لكلِّ غدٍ رزقٌ من الله واجبٌ ([٢٣])

(١) نُشرت في العدد الماضي من مجلة النور وفي الشبكة (الإنترنت).

([٢]) من الأسباب التي دفعتني لكتابة هذه المقامة ما رأيته من خلافات دائرة بين الناس كثير منها لأجل المال، ولا أقول هذه الخلافات بين الأصحاب فحسب، بل حتى بين الأزواج.

([٣]) إشارة إلى أخبار إفلاس كبرى البنوك العالمية.

([٤]) أحمد بن الحسين بن يحيى الهمداني، بديع الزمان، أبو الفضل، أحد أئمة الكتاب، وصاحب المقامات الشهيرة، المتوفى سنة (٣٩٨هـ). انظر: الزركلي _ الأعلام _ (ج ١ / ص ١١٥).

([٥]) القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد، الحريري، البصري: الأديب الكبير، له شعر حسن، توفي سنة (٥١٦ هـ). انظر: _ المرجع السابق _ (ج ٥ / ص ١٧٧).

([٦]) أحمد بن حمد لله النجفي (ت: ١٢١١هـ).

([٧]) الهَرَّاش والمُهَارِشَة بالكَلَاب: هو تحريش بَعْضها على بَعْض. الرازي: أبو بكر: مختار الصحاح. مادة: هرش.

([٨]) هذا من أمثال العرب، ومعنى من عَزَّ أي: غلب، وبَزَّ من بز ثيابه وأبْتَزَّه إذا سَلَبه إِيَّاهَا. انظر: ابن الأثير _ النهاية في غريب الحديث _ مادة: بز.

([٩]) برد العجوز يكون في آخر أيام الشتاء.

([١٠]) القَرَاد: هو الذي يلعب بالقرد، ويطوف به في الأسواق. انظر: أبو جيب: د. سعدي _ القاموس الفقهي _ (ج ١ / ص ٢٩٩).

([١١]) انظر: مقامات الهمداني (ج ١ / ص ٥٦).

([١٢]) المقصود به أنا، والنسبة إلى مدينة جرابلس حيث نشأت، وهي واقعة على ضفة نهر الفرات عند دخوله من تركيا إلى سوريا، وذكرت هذا للتمييز بين مقامة الهمداني وكلامي.

([١٣]) أي: الهمداني. حيث ذكر ما دار بينهما من شتائم وألفاظ يعفُّ القلم عن ذكرها.

([١٤]) القائل هو محمود الوراق (ت: ٢٢٠هـ).

([١٥]) انظر: - مقامات الحريري - (ج ١ / ص ٧ و ٨). بتصرف يسير.

([١٦]) ثوبٌ بالٍ.

([١٧]) عَرَجٌ.

([١٨]) ذكر هذا الفقير حاجته في قطعة أدبية ساحرة اختصرتها خشية الإطالة، فانظروها في مقامات الحريري.

([١٩]) اخترتُ من قصيدته في مدح الدينار هذين البيتين.

([٢٠]) السَّخُّ: الصَّنْبُ الكثير، والخال: البرق. الرَّبِيدِي _ تاج العروس _ مادة: سحح و خيل.

([٢١]) لم أشأ ذكراً القصيدة التي ذمَّ فيها الدينار كلها، واكتفيتُ بما ذكرتُ من أبيات.

([٢٢]) الوَيْلُ: المطر الشديد. الرازي _ مختار الصحاح _ مادة: ويل.

([٢٣]) البيت للفضل بن عبد الرحمن المطلبي (ت: نحو ١٧٣ هـ). ولو قال: لكلِّ غِدِّ رزقٌ من الله نازلٌ. لكان أفضل؛ إذ لا يجب على الله شيء، إلا أن يتفضل على عباده كرمًا منه جلَّ وعلا.